فكرة التَّغيّر في المصير
دراسة في شخصية هيراكليس من خلال مسرحية هيراكليس مجنونًا ليوريبيديس

د/ محمَّد خليل رشدي

مدرس اللّغة اللاتينية – جامعة أسيوط

تهدف هذه الورقة البحثيّة إلى دراسة فكرة التَّغيّر في المصير من خلال دراسة شخصية هيراكليس في مسرحية "هيراكليس مجنونًا" ليوريبيديس، حيث يمكننا الأخذ في الاعتبار أنّ التّغيّر هو مرحلة مؤثّرة في حياة البطل التراجيدي، وقد يأتي التّغيّر في المصير مرّة واحدة بشكل قاطع لتحديد مصير هذا البطل، وقد يتعرّض البطل نفسه لأكثر من تغيّر في مصيره، أي أنّ هذا التّغيّر يحدث تدريجيًا ويصبح تغيّرًا مركبًّا، وتكون نتيجته أن يتحوّل البطل من السّموّ والقوّة إلى الضعف والتّحطّم.

ولا شكّ أنّ للتّغيّر أدوات ودلائل ومقدمات تشير إليه وتنذر بقرب حدوثه، كأن نرى أفراد الجوقة في مسرحية "هيراكليس مجنونًا"، وهم يعلنون أنّ ربة الجنون Λύσσα تقترب في الأفق ويصبهم الرّعب من هول ما يرون، إلى أن تظهر الربة إيريس Ἶρις وتحاول أن تبثّ فيهم الطمأنينة وتخبرهم أنّهما - هي و ليسا - لم يأتيا إلا للقضاء على شخص واحد وهو هيراكليس.

هنا ندرك أنّ التّغيّر يصبح قاسيًا عندما يصيب البطل؛ فيرى نهاية أقرب النّاس إليه، ويصبح التّغيّر في قدر البطل أكثر قسوة إذا ما أصبح هو نفسه الأداة المستخدمة في تدميرهم، ولا ينتهي الأمر بنهاية البطل نفسه، بل يستمر في حياته ليكابد قسوة ما اقترفت يداه، ويحدث ذلك كلّه نتيجة لغضب إلهيّ يحلّ بالبطل.

إنّ أحد أشهر تلك النّماذج الّتي سقطت ضحية للغضب الإلهيّ -في الفكر الإغريقيّ-أكثر من مرة هو هيراكليس، خاصّة عندما أصيب بالجنون فقتل أبناءه من ميجارا، وكانت تلك الحادثة ذات تأثير عظيم عليه حيث إنّه لم يستطع -وهو صاحب الأعمال الخارقة-أن يُعيد أبناءه من الموت، ولم تشفع أبوّة زيوس في أن تردّ عنه غضب هيرا.

ولم تكُ قسوة التّغيّر في قدر هيراكليس في إصابته بالجنون وفي قتله لأبنائه فقط، بل كانت في عودته لصوابه ليكتشف هول ما فعل. ولعلّ دراسة شخصية هيراكليس التراجيدية الإغريقية تجعلنا نكتشف أن جنونه كان أداة في يد التّغيّر، ويصبح التّغيّر نفسه هو الباعث للجنون؛ فتتغيّر الرّؤية للأشياء، وتتغيّر الرّؤية للأشخاص؛ فيصبح الأب عدوًّا، ويصبح الأبناء هم أبناء الأعداء!

ومن ثَمَّ يصبح الجنون هو غلبة القوة الإلهيّة على عقل هيراكليس في صورته الإنسانية، فإذا حاول محاربتها اشتدّت معاناته، وإذا استسلم لها ففيها تدميره.

إنّ الحبكة الدّراميّة في المسرحية تنبع من جنون هيراكليس الّذي تختلف الآراء حول أسبابه، فهناك من يقول: إنه وقع بسبب أنّ هيراكليس نفسه أصبح يمثّل تهديدًا لعالم الآلهة، ليس بوصفه إنسانًا، ولا لكونه إلهًا، ولكن لأنه صار تجسيدًا شاذًا لكلا العالمين.[١]

وهناك وجهة نظر تقول: إنّ هيراكليس صار متغطرسًا، خاصة عندما أحضر معه كيربيروس عند عودته من العالم السفليّ، وكان ذلك كافيًا للقضاء عليه.[٢]

أيّ أنّ ما قام به هيراكليس من أعمال خارقه جعله لا ينتمي إلى عالم البشر، كما أنّه جعله يتحوّل إلى كائنٍ غير مرغوب فيه بين الآلهة في عالمهم.

لكن هيراكليس تحوّل ليصبح تجسيدًا فريدًا وسطًا بين عالمي الآلهة والبشر.

وهي المكانة التي لم يحظ بها مخلوقٌ من قبله، الأمر الّذي كان يعني تدمير الأساس الذي يفصل بين الآلهة والبشر.

لقد تعدى أثر هذا العمل في انعكاسه على إظهار قوى فرد واحد استطاع قهر قوى الحياة والموت، ليلقي بظلاله على البشرية جمعاء.[٣]

كلّ ذلك جعل سقوطه تحت طائلة العقاب حتميًّا؛ حيث يسقط هيراكليس البطل من علياء البطولة إلى أسفل درجات اليأس والشقاء.[٤]

لكننا إذا ما قبلنا وجهة النّظر هذه يبقى أمامنا الإجابة عن السّؤالين الآتيين:

- لماذا كان عقاب هيراكليس أن يقتل زوجته وطفليه وهو تحت تأثير الجنون؟
- لماذا استرد عقله مرة أخرى بعد أن ارتكب جريمته؟

الإجابة عن السؤال الأول تأتي من تحليلنا لمعنى الجنون ومدى تأثيره على العقل، الذي يتبعه قيام الشخص المغيَّب عقله بارتكاب أعمال قد ينكرها هو شخصيًا، ويرى استحالة إتيانه لتلك الأفعال التي تخالف سلوكه الشخصيّ وما يؤمن به من معتقدات روحانية ونظم اجتماعيه سائدة وهو حاضر العقل.

فالجنون -إذن-هو نوعٌ من الظلام الذي يُخيّم على العقل، الذي بدوره يجعل الرّوح تقود العقل إلى عالم آخر يسيطر فيه الخيال على الواقع.[٥]

وقد كان ذلك ما حدث مع هيراكليس عندما تخيّل وهو يقتل أبناءه وزوجته أنّه يقتل أبناء يوريستيوس (٩٧٠-٩٧٢).

ليس ذلك فقط، بل إن إيريس أعلنت أن علوّ شأن هيراكليس-بوصفه بشرًا- أصبح يهدّد قدر الآلهة. من هنا كان عقابه حتميًّا كي تأخذ العدالة مجراها.[٦]

Ἶρις: ἢ θεοὶ μὲν οὐδαμοῦ,
τὰ θνητὰ δ᾽ ἔσται μεγάλα, μὴ δόντος δίκην. 841-2.

إيريس: وإلا ضاع قدر (الآلهة)، وتعاظم قدر البشر، إذا لم
يسدّد هذا الرّجل ديون العدالة عليه.[٧]

لا شكّ أنّ تّجريد هيراكليس من ملامح الألوهية في شخصية يجعل العقاب يسقط عليه كواحد من البشر.

هذا يعنى أنّ الآلهة نفسها لم تعدّ هيراكليس نصف إله، أو حتى مجرد همزة الوصل بين عالم الآلهة وعالم البشر. لكنّها قرّرت أن تنظر إليه وتعاقبه كبشر فانٍ.

من هنا يصبح الجنون هو المحرّك الذي اختارته الآلهة لإجبار هيراكليس على الانصياع لحتميّة المصير والخضوع للتّغيّر في طبيعته هو كبطل حتى يدرك أنّه لن يستطيع أن يغيّر ما قدّمت يداه عندما يعود إلى صوابه، ويدرك فداحة جريمته ولن

تكون هناك عودة إلى هاديس مرّة أخرى لإعادة من يريد من الموت إلى الحياة كما فعل من قبل.

أما ما أصاب هيراكليس مِن حُزنٍ جعله يفكّر في الانتحار بعد أن عَلِم أنّه قد قتل أبناءه وزوجته بيديه.

وهناك من الدّارسين من يؤكّد أنّ هذا الحزن ربّما كان غير مقنع خاّصة للجمهور الأصليّ للمسرحية الذي استمع لـهيراكليس في أوّل كلماته وهو ينعى أبناءه، وهو يعدّد مآثره وبطولاته الشّخصيّة بينما يجعل الحديث عن حبّه لأسرته. من هنا يدرك هيراكليس متأخرًا أن أولوياته في حياته لم تكن صائبة:[٨]

Ἡρακλῆς: ὅστις δὲ πλοῦτον ἢ σθένος μᾶλλον φίλων
ἀγαθῶν πεπᾶσθαι βούλεται, κακῶς φρονεῖ. 1425-6.

هيراكليس: إن الذي يتمنى أن يتمتع بالثروة أو القوة
ويفضلها على أصدقاء الخير، فقد حاد عن الصواب

هذا التّعليق يجعلنا نتعاطف مع وجهة النظر التي تدين هيراكليس وتجعل حزنه على مصرع أسرته وكأنّه نوع من الادّعاء الكاذب.

إلى جانب ذلك هناك من يرى أن تخلّي هيراكليس عن الانتحار يعبّر عن ضعف وخوف لا يليقان بـهيراكليس البطل.[٩]

من ناحية أخرى نلاحظ أن الجوقة تتعجّب من كلّ تلك الكراهية من زيوس الأب لـهيراكليس الابن والتي لا مسوّغ لها:

Χορός: ὦ Ζεῦ, τί παῖδ᾽ ἦχθηρας ὦδ᾽ ὑπερκότως
τὸν σόν; 1087-8.

الجوقة: أي زيوس، لماذا مقتك البغيض ضدّ ابنك؟

أمّا هيراكليس فقد كان يرى أنّ أمفيتريون هو والده الحقيقي:

Ἡρακλῆς: πάτερ, τί κλαίεις καὶ συναμπίσχῃ κόρας,
τοῦ φιλτάτου σοι τηλόθεν παιδὸς βεβώς; 1111-2.

هيراكليس: أبي، لماذا تذرف الدّمع وتخفي عنّي عينيك
وتحجم مبتعدًا عن ابنك الحبيب؟

كما نلاحظ أنّ الجوقة تعزو ما حلّ بـهيراكليس إلى كارثة أعدّتها له الآلهة بوجه عام:

Χορός: τίνα τρόπον ἔσυτο θεόθεν ἐπὶ
μέλαθρα κακὰ τάδε,
τλήμονάς τε παίδων τύχας; 919-21.

الجوقة: بأيّ كيفيّة هوت من عند (الآلهة) هذه المصائب
على أهل هذا البيت؟

وهو ما يعيد للأذهان حقد هيرا عليه. من هنا يصبح هيراكليس ضحية لـ الآلهة التي أخلص إليها في واقع الأمر.

فكما كان هيراكليس أداة في يد الآلهة لتحقيق الخير، فإنّه قد أصبح في النهاية أداة لتحقيق الشّرّ. وكأنّ علاقة هيراكليس بـالآلهة تتحوّل في مجملها إلى مصدر للألم والشّقاء في نهاية الأمر.[١٠] فربما يكون هيراكليس نصف إله، لكنه حتمًا سيختلف عن الآلهة التي تقتل ولا تبالى.

أمّا هيراكليس فإنّه يُدرك ما فعل ويحمّل نفسَه المسؤولية.[١١]

الجانب الآخر من الحدث في المسرحية -كما يرى معظم الدارسين-هو إبراز أهمية الصداقة ومدى تأثير الصديق المخلص، على صديقه.[١٢]

هذا ما نراه بالفعل عندما يقوم ثيسيوس بإنقاذ هيراكليس من الانتحار بعد اكتشافه للجريمة التي ارتكبها. ليس ذلك فقط، لكنّه يبثّ الأمل في نفس هيراكليس لكي يبدأ حياته من جديد.[١٣]

وكأن قتل هيراكليس لأبنائه ثمّ قيامه بدفنهم يصبح ميلادًا جديدًا لـهيراكليس نفسه.[١٤]

لكنّنا نرى أنّ ظهور ثيسيوس لم يكن يحمل معنى الصديق الوفيّ فقط، لكنّه كان بمثابة الأداة التي حوّلت هيراكليس -نصف الإله-إلى كائن بشرى بكلّ ما يحمله البشر الفانين من ضعف وألم وحزن.[١٥]

وهذا ما نجيب به عن سؤالنا الثاني، وهو لماذا استرد هيراكليس عقله مرة أخرى بعد أن ارتكب جريمته؟ لقد كانت عودة هيراكليس لصوابه مرة أخرى بمثابة نقطة التحول في شخصيته واختفاء الجانب الإلهيّ في ذاته، وتحوّله إلى إنسان يحتاج إلى مَن يواسيه في محنته.

وفي واقع الأمر هناك بعض الباحثين الذين وجدوا أن هيراكليس تحوّل إلى إنسان لكنّه ليس إنسانًا عاديًا، فهو إنسان يغمره الشّعور باليأس والضّعف، إلى درجة فقدان القوّة على الانتحار.[١٦]

حتّى إنّ ثيسيوس وأمفيتريون يؤكدان على أنّ هيراكليس وصل إلى درجة من الشّقاء والألم لم يصل إليها بشر آخر:

Θησεύς: φεῦ φεῦ: τίς ἀνδρῶν ὧδε δυσδαίμων ἔφυ;١١٩٥

ثيسيوس: يا للكارثة! مَن مِن البشر صار شقيًّا مثله؟!

لا شكّ أنّ ثيسيوس الصّديق كان له تأثير عظيم يفوق تأثير أمفيتريون الأب نفسه الذي كان مشفقًا على هيراكليس متألمًا لما آل إليه حاله حتّى عندما أشار إليه قائلًا:

" إنّه ابني 1192 ἐμὸς ἐμὸς ὅδε γόνος ".[17]

هذا يجعلنا نتّفق مع الرأي القائل بأنّ صداقة ثيسيوس لـ(هيراكليس) كانت أكثر نفعًا من عالم الآلهة التي خانته وقضت على نسله. [١٨]

من هنا أصبح هيراكليس مثل باقي البشر، خاضعًا ضعيفًا أمام حتميّة المصير وإرادة الآلهة.[١٩]

تلك الآلهة التي لم يعد هيراكليس نفسه يعبأ بها في نهاية الأمر.

Ἡρακλῆς: αὖθαδες ὁ θεός, πρὸς δὲ τοὺς θεοὺς ἐγώ. 1243

هيراكليس: حقًا إنّ (الآلهة) لا تعبأ بي، وأنا أيضًا لا أعبأ بها.

إنّ هيراكليس نفسه لم يكن على يقين -حتّى نهاية المسرحية-من الأسباب التي دفعت الآلهة للانتقام منه بهذا الشكل.[٢٠]

من الناحية الدّرامية يمكننا أن نتّفق مع الرّأي القائل: إنّ المفارقة التراجيدية في المسرحية استمدّت قوّتها من هول ما اكتشفه هيراكليس بعد أن عاد إلى صوابه، في حين كان الجمهور يدرك تمامًا ما حدث ويشعر بالشفقة تجاه هيراكليس الذي تحوّل إلى ضحية.[٢١]

بذلك يصبح هيراكليس نموذجًا قويًّا للبطل التراجيديّ الذي اشتدّت عليه المحن والمصائب من ناحية، وبقي على قيد الحياة ليعيش وسط أحزانه، من ناحية أخرى.[٢٢]

في ختام هذه الورقة البحثيّة نستعرض أهمّ النّتائج التي توصّلنا إليها:

- دراميًّا لا يظهر هيراكليس إلا من أجل أن يُعاقب، حتّى لا ينسى الجانب البشريّ منه وأنّه خاضع لتصرّف المصير:

Ἡρακλῆς:νῦν δ', ὡς ἔοικε, τῇ τύχῃ δουλευτέον. 1357

هيراكليس: أما الآن، وكما يبدو لي، فعليَّ أن أخضع عبدًا ذليلًا للحظ السيئ.

- يظلّ الصّراع بين المصير والحرية المطلقة قائمًا حتى بالنسبة لـهيراكليس نفسه، ومن هنا يبدو أن جنون هيراكليس كان قرارًا أجمعت عليه الآلهة، ولذلك أصيب هيراكليس بالجنون مثلما قد يحدث لأيّ من البشر.

- كان عقاب هيراكليس أن يُصاب بالجنون حتّى يكون هو قاتل زوجته وأبنائه. وما كان لأحد أن يقتل أبناء هيراكليس وزوجته إلا هو، ولو كان هناك شخص آخر قد ارتكب هذه الجريمة لقتله هيراكليس بلا هوادة. لقد أصبح هيراكليس ضحية لـزيوس منذ لحظة ميلاده، فهو لم يكن ينتمي إلى عالم الآلهة في طغيانهم ولا إلى عالم البشر في ضعفهم. من هنا قد نقبل الرّأي القائل إنّ قوة المصير وإرادة زيوس وبعض الآلهة الأخرى، كلّها توحّدت لتحوّل هيراكليس إلى بشر عاجز ضعيف ليس فقط لتقبّل ما يأتي به المصير؛ بل ليصبح هو نفسه منفّذًا له.[٢٣]
- هذا ما يجعلنا نرى -على المستوى الدراميّ-أنّ الجنون كان ضروريًّا حتّى تقع الجريمة. لأنه بدون الجنون لم يكن هيراكليس ليفعل ما فعل.
- لكن أهمّ ما نودّ الإشارة إليه هنا هو أنّه إذا كان الجنون هو مصير هيراكليس؛ فإنّ الجنون لم يكن هو جنون هيراكليس نفسه، لكنه كان جنون الآلهة. هذا الجنون الذي تمثّل منذ البداية في ميلاد هيراكليس، الذي لم يكُ سوى نَتَاجٍ لإحدى نزوات زيوس. فالنّزوة نوع من الجنون يتمثّل في الإقدام على ارتكاب فعل ما يخالف العقل ويخضع تمامًا للرغبة وغلبة المشاعر.
- من هنا تصبح النّزوة أكثر أنواع الجنون تعقلًا؛ لأنّها لا تسيطر على العقل للأبد لكنّها قد تخلّف نتائجَ مدمّرة.
- كذلك كان جنون هيراكليس، الذي يبدو وكأنه انعكاس لنزوات الآلهة الجنونية، فيتحوّل إلى آلة للقتل، ثمّ لا يلبث أن يستفيق على بشاعة ما ارتكب وهو لا يدري لما ارتكب هذه الجرائم وكيف سيكمل حياته من بعدها. وهو ما يظهر في نهاية الحوار بين هيراكليس وثيسيوس:

Θησεύς: οὐδεὶς δὲ θνητῶν ταῖς τύχαις ἀκήρατος,
οὐ θεῶν, ἀοιδῶν εἴπερ οὐ ψευδεῖς λόγοι. 1314-5.

ثيسيوس: ما من أحد من البشر بمنأى عن بطش سوء الحظ.

Θησεύς: ἀλλ᾽ οἰκοῦσ᾽ ὅμως
Ὄλυμπον ἡνέσχοντό θ᾽ ἡμαρτηκότες. 1318-9.

ثيسيوس: ولا زالت الآلهة تحكم العالم رغم ذنوبها.

- أمّا عودة هيراكليس إلى صوابه بعد ارتكاب جريمته فيمكن أن نعدّها نوعا من التّأكيد على الخلل في السلوك الإلهيّ الذي أراد الإمعان في الانتقام من هيراكليس، وإعادته إلى صوابه بشرًا فانيًا يبحث عمّن يواسيه من عالم البشر ذاته فيما بقي له من العمر.

الهوامش:

1 Silk 1985, 17.
2 Griffiths 2002, 646.
3 Griffiths 2002, 650.
4 Hartigan 1987, 126. Yoshitake 1994, 140.
5 Berthold-Bond 1994, 82.
6 Silk 1985, 14.
٧ رجعنا أحيانًا في قراءتنا للمسرحية إلى ترجمة: عتمان، أحمد. ٢٠٠١. هرقل مجنونًا. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة.
8 Griffiths 2002, 652.
9 Yoshitake 1994, 142.
10 Silk 1985, 14-15, Papadopoulou 2004, 266.
11 Hartigan 1987, 128.
12 Hartigan 1987, 132.
13 Adkins 1966, 216.
14 Higgins 1966, 104. Conacher 1955, 148.
15 Chalk 192, 18.
16 Yoshitake 1994, 142. Gibert 1997, 253. Silk 1985, 17.
17 Higgins 1984, 90.
18 Michael 1986, 177.
قد نتفق مع Silk في الرأي أن يوريبيديس قام بتوظيف شخصية ثيسيوس على أنه إنسان من الآلة *Homo ex Machina* من أجل وضع حد لعذاب هرقل، وإنقاذه من الانتحار. انظر Silk 1985, 16.
19 Greene 1935, 7.
20 Gill 1996 259.
21 Stuart 1918, 290.
22 Wilson 2004, 83, 87.
يرى Wilsonأن الرسالة القوية التي أراد يوريبيديس أن تبقى نصب عين الجمهور هي أنه لا يوجد إنسان ليس في حاجة إلى من يسانده وينصحه ويواسيه إذا ما اشتد عليه البلاء.
23 Greene 1935, 7.

Bibliography

المصادر

Murray, G. 1913. *Euripidis Fabulae*, vol. 2. Oxford Clarendon Press.

المراجع العربية

عتمان، أحمد. ٢٠٠١ هيراكليس مجنونًا. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة.

المراجع الأجنبية

Adkins, A. W.H. 1966. "Basic Greek Values in Euripides' Hecuba and Hercules Furens." *CQ* 16: 193-219.

Berthold-Bond, D. 1994. "Hegel on Madness and Tragedy." *HPhQ* 11: 71-99.

Chalk, H. 1962 "Apeth and Bia in Euripides' Herakles." *JHS* 82: 7-18.

Conacher, D. J. 1955. "Theme, Plot, and Technique in the "*Heracles*" of Euripides." *Phoenix* 9: 139-152.

Gibert, J. C. 1997. "Euripides Heracles 1351 and the Hero's Encounter with Death." *CPh* 92: 247-258.

Gill, C. 1996. "Mind and Madness In Greek Tragedy." *Phronesis* 29: 249-267.

Greene, W. C. 1935. "Fate, Good, and Evil, in Early Greek Poetry", *HSPh* 46: 1-36.

Griffiths, E. M. 2002. "Euripides' "Herakles" and the Pursuit of Immortality." *Mnemosyne* 55: 641-656.

Halleran, M. R. 1986. "Rhetoric, Irony, and the Ending of Euripides' "Herakles." *ClAnt* 5: 171-181.

Hartigan, K. 1987. "Euripidean Madness: Herakles and Orestes." *G&R* 34: 126-135.

Higgins, W.E. 1984. "Deciphering Time in the "Herakles" of Euripides."

QUCC 18: 89-109.

Papadopoulou, T. 2004. "Herakles and Hercules: The Hero's Ambivalence in Euripides and Seneca." *Mnemosyne* 57: 257-283.

Silk, M.S. 1985. "Heracles and Greek Tragedy" *G&R* 32: 1-22.

Stuart, D. C. 1918. "The Function and the Dramatic Value of the Recognition Scene in Greek Tragedy." *AJPh* 39: 268-290.

Yoshitake, S. 1994. " Disgrace, Grief and Other Ills: Herakles' Rejection of Suicide." *JHS* 114: 135-153.